المحاضرة رقم 18 :

منجزات الحضارة الفينيقية

بحُكم الالتزام بحجم محتوى المحاضرات فإن هذا المجال سنختصر فيه عبر تناول العناصر الحضارية الآتية:

1 . النظام السياسي في فينيقيا : تمتعت المدن الفينيقية بالاستقلال في أغلب الفترات ، و كان لكل مدينة دولة ، تتكون هذه المدينة الدولة من مدينة محصنة داخل الأسوار إضافة الى الأراضي المحيطة ، و حدث أن كانت بعض محاولات من مدن للهيمنة على مدن أخرى ومن ذلك محاولات "جبيل" ،" صيدا" و "صور" في فترات مختلفة، غير أن الثابت هو عدم إمكانية إقامة كيان سياسي موحد في دولة قُطر* ، وعلى اعتبار الأصول الكنعانية السامية للفينيقيين التي تقوم على البداوة فإن السلطة السياسية في بادئ الأمر كانت تقوم على مبدأ القبيلة في الفترات المبكرة أي بيد زعيم القبيلة الذيُ ختار من الأسر العريقة و القوية وربما تنحسر الزعامة في أسرة مُعينة ، و ربما يستشر مجلس من شيوخ و أعيان هذه القبيلة من أصحاب الرأي .

وبفعل الاستقرار بالساحل السوري وحدوث حياة التحضر لديهم انتقل الفينيقيون الى **الملكية** ، وتظهر معالم هذا الملك خلال القرن 14 ق.م ، حين دلت مراسلات تل العمارنة على أسماء ملوك للمدن الفينيقية، و أظهرت الوثائق المصرية و الأشورية أن **الوراثة في منصب الملك** كانت سارية المفعول في عدة مدن فينيقية ، ومن ذلك أسرة "أحيرام " في صور "و أسرة "لولي" ملك "صور و صيدا" ، و يذكر أن **سلطة مجلس الشيوخ** منطقياً كانت تحد من سلطة الملك ذا علمنا أن أعضاء المجلس كانوا من العائلات الأكثر تجارة و ثراء في المدينة ، و بلغت مكانة مجلس الشيوخ في "صور" أن يُصدر قرارات في غياب الملك ، وفي "صيدا" أن يصدر أعضائه المائة (100) قرارات ضد قرار الملك .[1]

في خلال القرنين السادس و الخامس قبل الميلاد، و بتأثير اغريقي، و مع تزايد مكانة الطبقة التجارية في المدن الفينيقية زادت مكانة مجلس الشيوخ و استطاعت خلع الملوك وإعادة انتخابهم فيما يشبه النظام الاوليجركي ، غير أنّ تأثير نظام القضاة عند العبرانيين أدى الى اختيار حاكمين (شفطين) لمدة سنة كاملة قابلة للتجديد الى جانب مجلس الشيوخ و استحداث مجلس للعامة .

* ـ يستدلُ كثيرون على غياب الدولة القطر في فينيقيا بما أورده المؤرخ "هيرودوت" عن مشاركة الفينيقيين في الحرب الفارسية ضد اليونان عام 480 ق.م بأسطول يدعم الفرس يقوده ثلاثة قادة هم "تيترا منيستوس الصيدوني" و " ماتان الصوري " و "مار بالوس الأروادي" ، ولو كان لهم كيان سياسي واحد لكانت هناك قيادة واحدة . (أنظر : محمد أبو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، المرجع السابق ، ص 107.)

[1] ـ محمد أبو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، المرجع السابق ، ص 111.

2 . الاقتصاد الفينيقي : أشاد مؤرخو الإغريق و رحالتهم بالكروم و جودتها في بعض المدن الفينيقية، كما وصفوا **الزراعة** في شكل المصاطب الجبلية ، غير أنّ اهتمام الفينيقيين بالنشاط الزراعي كان موجودا بكثرة في المرحلة المبكرة خلال الألف الثالث و النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ، خاصة مع إدراك الفينيقيين إلى إمكانية الحصول على المنتجات الزراعية بأقل مجهود من الأمم الزراعية في مصر القديمة و العراق القديم ، و لعل العامل التضاريسي الجبلي خاصة و ضيق السهول قد حتّم عليهم عدم التركيز على النشاط الزراعي بشكل كبير.

أما **بخصوص المصنوعات** فقد نمت في المدن الفينيقية منذ العهود المبكرة صناعات محلية اعتمادا على مواد من الساحل السوري و من البحر، و ذلك لدعم التجارة و تقويتها، ولأن المواد الأولية كانت قليلة فقد استوردوا مواد أخرى من مناطق خارجية و قاموا بصناعتها في مدنهم و اشتهروا بها مثل بناء السفن، و الصناعة النسيجية التي كانت ملونة بصبغة مستخرجة من صدف البحر و القواقع حتى بلغ الأمر أن الألبسة التي حيكت و طرّزت في مدينة "صيدا" كانت فائقة الشهرة لدرجة أشار اليها "هوميروس" في أشعاره و "هيرودوت" في تاريخه، إضافة الى التركيز على صناعات دقيقة كالمجوهرات اعتمادا على مواد أولية مثل العاج و المعادن النفيسة و الأحجار الكريمة.[2] وكان لصناعة المعادن دور كبير خاصة في صناعة البرونز المجلوب من قبرص ، و الذهب و الفضة من منطقة القرن الافريقي ، كما اهتم الفينيقيون بالصناعة الفخارية للاستعمال المحلي في شكل أواني و مزهريات ، أو في الاستعمال التجاري في شكل أوعية نقل للزيوت و الخمور و السوائل المختلفة .

ومن أهم الأنشطة الصناعية **بناء السفن** حيث كان للفينيقيين رُفقة المينويين في جزيرة "كريت " السبق في هذا النشاط ، و أمام تراجع التفوق الكريتي في البحر أمام ضربات الدوريين منذ القرن 12 ق.م ، بقي الفينيقيون لزمن طويل سادة المتوسط في النشاط البحري ومعه التجارة ، ولعلّ ذلك يرتبط أساساً بتوفر مادة خشب الأرز من جهة ، ولتوفر خبرة طويلة و معرفة بأسرار البناء ، ولتحقيق أرباح تجارية أكثر زاد اهتمام الفينيقيين ببناء السفن المتينة التي تستطيع أن تجوب البحر مهما كانت ظروف الملاحة، ويمكن تقسيم سفن الفينيقية الى فئتين . حسب الغاية منها . هما السفن التجارية والسفن الحربية، فكانت السفن التجارية طويلة تحمل في كل جانب صف أو صفين من المجذفين، وفي وسطها سارية تحمل الشراع وتنتهي بمنحوتة على شكل رأس حيوان ومعظم الأحيان يكون هذا الحيوان هو "الحصان" الذي كان يرمز عند الفينيقيين إلى السرعة ومن نماذجها السفينة التي عرفت بـ "سفينة جبيل" ، أما السفن الحربية فكانت ذات مقدمة حادة معدة . أحياناً معدنية . للصدام مع السفن الأخرى تحمل في مؤخرتها عارضتين خشبيتين تعمل عمل الدفة. (**أنظر الشكل 35**)

[2] ـ محمد أبو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، المرجع نفسه ، ص 113.

الشكل 35: نحت آشوري بارز يظهر سفن فينيقية تنقل الأخشاب .

(أنظر: http://arab-ency.com.sy/detail/8926)

*. **التجارة الفينيقية** : هي نشاط سيطر عليه الفينيقيون و كان لهم السبق في كثير من خباياه ، إذ نجدهم عرفوا كأمة بحرية منذ على الأقل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد و للتعرف على تفصيلات ذلك نشير الى:

أ . **طرق التجارة الفينيقية** : اعتمد الفينيقيون على **الطرق الساحلية** بشكل كبير وهنا هناك طريقان رئيسيان ساحليان اعتمد عليهما الفينيقيون، أحدهما نحو الشمال باتجاه "كيليكيا" (اللاذقية في سوريا حالياً) و "أوغاريت" و"طرطوس" (في سوريا أيضاً) تذهب نحو البحر الأسود وأرمينيا أو نحو آسيا الغربية. أما الطريق الثاني فيتجه نحو الجنوب ويمر بكل المدن الفينيقية حتى سواحل فلسطين وسيناء، لكنه يتفرع هناك إلى فرعين أولهما نحو شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي، والثاني يكمل نحو الجنوب باتجاه مصر والسودان والحبشة. أمّا **الطرق الداخلية** فكان لهم طريقين رئيسيين، يتفرع الأول منهما من الطريق الساحلي الشمالي، فينطلق من "أوغاريت" باتجاه "حلب" و"حماه" ومدن الداخل السوري الحالي ويصل إلى وادي الفرات وبلاد الرافدين، أما الطريق الثاني فيقطع جبال لبنان اتجاه "دمشق" ومنها الى "تدمر" ثم شرق سوريا وصولاً الى بلاد الرافدين .

ب . **المواد التجارية**: مارس الفينيقيون تجارة ذكية تعتمد على نقل مواد تجارية نادرة وخفيفة من مناطق فيها فائض الى مناطق لا تملك تلك المواد وخاصة أنهم كانوا يملكون ويحتكرون أسرار بناء السفن و فن الملاحة، ولذلك كانت البداية بتجارة المواد الأولية لصناعة السفن، كما تاجروا أيضاً بالخمور والعطور، و أمام رواج تجارتهم قاموا بشراء المواد من بعض المناطق وبيعها للمناطق الأخرى مستخدمين مفهوم "الاستيراد والتصدير" الحالي، فاستوردوا اللحوم والصوف والجلود من وسط سوريا الحالية، واستوردوا أيضاً الحبوب والعسل من مختلف مناطق فلسطين. كما قاموا بشراء النحاس من قبرص والذهب من إسبانيا الأحجار الكريمة من مصر والعاج من السودان، واستورد الفينيقيون الخيول من أرمينيا، وقاموا ببيع هذه المنتجات لمناطق أخرى مشكلين شبكة معقدة من الخطوط التجارية، كما تاجروا

بالمنسوجات والأواني الزجاجية. و في نفس الصدد كانت سفن الفينيقيين أداة شحن و نقل دولي كان يتم استأجراها من قدماء المصريين و غيرهم.

جـ . دوافع ساهمت في نجاح التجارة الفينيقية: ولعلّ من عوامل رواج المنتجات الفينيقية و كساد غيرها و بخاصة في المنسوجات هو **سر اللون الأرجواني** و في هذا الصدد كانت الأقمشة والأصبغة ملونة بهذا اللون، فاحتكروا صناعة الصباغ الأرجواني الذي استخرجوه من أصداف تدعى أصداف "الموريكس" كانت تنتشر بكثرة على الشواطئ حتى غدت اليوم نادرة جداً، وهنا يتم الحصول على هذا الصباغ عن طريق سائل أصفر يُستخرج من الأصداف بعد انتزاعها من الشاطئ ويتم تلوينها المنسوجات بهذا السائل، وبعد أن تجف يتحول اللون إلى أرجواني قاتم.

و **السر الثاني** في الرواج الكبير للمصنوعات الفينيقية هو **الصناعة الزجاجية،** ورغم أنّ هذه الصناعة ليست وليدة فينيقيا بل تعود بداياتها لقدماء السوريين و المصريين ، الى أنّ التحسينات الفينيقية كانت عاملاً فاصلاً في اشتها الزجاجيات الفينيقية ، خاصة واكتشافهم للزجاج الشفاف بالإضافة لقدرتهم على صناعة الزجاج الملون بالأزرق والأحمر والأصفر، كما صنعوا من الزجاج الحلي وزيَّنوا الخواتم والأساور بقطع زجاجية تشبه الأحجار الكريمة.

يُضاف الى كل ما سبق اعتماد الفينيقيين في تجارتهم على السيطرة على **تجارة المعادن** و ذلك باستيراد معادن مثل النحاس والحديد والقصدير والذهب من عدة مناطق مثل قبرص وإسبانيا، و في سبيل هذه المعادن النادرة عندهم أبحروا إليها في إيطاليا وجنوب إنكلترا، و برغم استعمالها المحدود في صناعاتهم (الأسلحة والتماثيل والكؤوس والنقود والقليل من الحلي)الاّ أنّها كانت مادة رئيسية في تجارتهم مع الأمم الأخرى. يُضاف الى ذلك تجارة المصنوعات الخزفية في شكل مزهريات و تُحف، وهنا عرفت مقابر العديد من الحضارات على تواجد كبير للمواد الخزفية الفينيقية في كل من بلاد الاغريق و إيطاليا و حتى اسبانيا.

3 . المجال الثقافي : يُمكن التطرق لهذا المجال عبر استعراض العناصر الآتية :

أ . الأبجدية الفينيقية : لعل أهم الإنجازات الحضارية التي حقّقها الفينيقيون كان اختراع الأبجدية، فالأبجدية التي عُثر عليها في "أوغاريت" كانت مؤلفة من 30 رمزاً مسمارياً، تمّ بعدها اختزال عدد رموزها في "جبيل" إلى 22 حرفاً ساكناً كتبت من اليمين إلى اليسار، وقد انتقلت هذه الأبجدية إلى بلاد اليونان حيث استخدمها الإغريق في كتاباتهم بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات وانتقلت بعدهم الى الرومان ، كما انتقلت شرقاً بوساطة الآراميين، وكانت الأساس لكثير من الأبجديات التي وضعت في مناطق الشرق الأقصى.

ب . الديانة الفينيقية : بخصوص ديانة الفينيقيين فالمعروف أنه كان لكل مدينة دولة فينيقية إلهها الرئيسي، إلى جانب مجموعة من الآلهة الثانوية، وبعض هذه الآلهة كان على صلة بمظاهر الطبيعة وبعضها الآخر بالكواكب وكانت

كلمة «بعل» صفة تطلق على جميع الآلهة الرئيسية في المدن الفينيقية وهي تعني «السيد، الملك» فهناك بعل صيدون وبعل لبنان وغيرهما، وكان المؤنث منها «بعلة، بعلات» وكانت هذه الإلهة الرئيسية في مدينة جبيل، وتمثل الخصب والتوالد. وكان «أشمون» هو بعل صيدا وقد قرنه اليونانيون بـ "اسكيليبيوس" وهو إله الطب عندهم. أما إله صور الرئيسي فكان الإله "ملقارت" ومعنى الاسم ملك المدينة أو سيدها وهناك الإله «أدون» والكلمة تعني «السيد» أيضاً، وهو يشبه الإله تموز الرافديني، وقد حكيت حول هذا الإله أسطورة ترتبط بوفاته وعودته إلى الحياة رمزاً لتوالي فصول السنة، وقد سماه الإغريق أدونيس.

اعتمدت ديانة الفينيقيين على عدة طقوس تقام في المدن الفينيقية وتختلف من مدينة إلى أخرى، لكنها تشترك جميعها بالنظرة الواحدة للآلهة، وكان معروفاً أنه في كل مدينة فينيقية يوجد ثلاثة آلهة، إله ذكر مسن يملك الحكمة وإلهة تمثل الذكاء والحياة وإله شاب يمثل النبات والولادة.

أشهر الآلهة في المدن الفينيقية :

هذا و ذُكرت في الديانة الفينيقية آلهة ثانوية في النُصب الجنازية مثل "بعل حامون"، "بعل لُبنان"، الإله "موت"، "بعل كاسيوس"، "بعل صافون"، "الإلهة شمس"، وكان الفينيقيون يقدمون الأضاحي في مناسبات كثيرة ، وذكر الفينيقيون أنّ المدن الفينيقية عند تعرضها للغزو أو الحصار كانت تمارس طقس الأضاحي البشرية للأطفال .

وإجمالاً يمكن القول إن الدور الحضاري للفينيقيين لا يمكن إغفاله، فقد كانت لهم الريادة في مجال اختراع الأبجدية، والريادة في التجارة البحرية والريادة في الطواف حول إفريقيا. ولهم إسهاماتهم من الفكر الفلسفي الديني (فيلون الجبيلي) والقانوني (مدرسة بيروت القانونية)، إلى جانب الأدب، وذلك من خلال مجموعة من الأساطير التي وصلت إلينا، ولعل أهمها أسطورة أدونيس وملحمة كرت .